مقدمة

مصر .... الغياب الطويل
ومحاولة البحث فى الجذور

شوقى جلال

هذا الكتاب صدمة بكل ما تعنيه كلمة صدمة فى إطار الفكر والتقليد ....

وكل ماتعنيه كلمة صدمة من مسئوليات وواجبات مستقبلية .وليس وحده كذلك فإن كتابات كثيرة حفلت بها الحياة الفكرية النقدية وضعت بديهيات كثيرة موضع شك وتساؤل . وهذه هى سمة أساسية من سمات الصحوة...صحوة الفكر المواكب لنشاط مجتمعى ..نشاط شامل العقل واليد فى تحول جذرى نحو حقبة حضارية جديدة صدق العزم بشأنها .... بديهيات كثيرة تشكل مرتكز إطارنا الفكرى ، وحددت بالتالى سلوكنا، بل وتصوراتنا للعديد من ظواهر حياتنا ...حكمت الفكر والسلوك ... وإذا بها حين توضع على مائدة الحوار و التساؤل المنهجى ، وتخضع للبحث العقلانى النقدى لا تصمد طويلا على الرغم من صمودها فى أذهان الناس قرونا ...وتكون الصدمة التى تصل إلى حد الذهول وعدم التصديق ...

من هذه البديهيات على سبيل المثال التى تحولت إلى "حقائق فكرية» اجتماعية شغالة ، أعنى فاعلة فى المجتمع حاكمة للفكر والسلوك معا قولنا على سبيل المثال إن العرب بدأت مسيرة حياتهم الإجتماعية من البداوة ، أو كما يقال هم أعرق فى البداوة وأبعد عن الصنائع . ونأخذ كلمة العرب باعتبارهم اسم جنس من التجانس دون اعتبار لاختلافات فرضها واقع جغرافى ومن ثم تاريخى وثقافى أو ما إصطلح على تسميته المحيط العقلى noosphere وكأن اللغة بمعنى النطق ، لا بمعنى الفكر ، هى المعيار الأوحد المحدد لطبيعة وخصوصيات المجتمعات وانتماءاتها الثقافية ... و نأخذ البداوة على الإطلاق دون اعتبار لحركة التاريخ واتساع النطاق الثقافى الحضارى وكأنه نهر دافق ممتد من منبعه أو منابعه المتباينة حاملا ماضيه مع حاضره الذى نعيشه الآن .... كأن البداوة هى المبتدأ لكل مجتمع يحمل صفة العربى ثقافة راهنة إفترضنا تجانسها المطلق و قطيعتها المطلقة مع ماسبق وكان مبتدأحقيقيا ، وأغفلنا جوهر التطور شكلا ومسارا ومحتوى وتفاعلا ونقصا وزيادة ....على الرغم من تناقض هذا الرأى مع وقائع التاريخ الجغرافى الثقافى الحضارى لعديد من المجتمعات. ومن

البديهيات أيضا قولنا أن العرب لم يعرفوا نظام الدولة ، وأن الدولة بدأت أول ما بدأت مع حدث سقيفة بني ساعدة وعهدها الذي هو أول دستور لدولة عرفها العرب في تاريخهم . وهكذا فقدنا الاتجاهات الأصلية الجغرافية وفقدنا معها الموقع وتمايزه وتاريخه ونتاجه المادي والفكري .... وكأن بلاد ما بين النهرين ووادي النيل لم تعرف النظام المركزي والدولة والبيروقراطية . ويبدو وكأن إطارنا الفكري تحكمه مقولة غير صريحة تقول أن تاريخنا لا يبدأ على أرضنا ... وهي مقولة تهدم كل أسس العلم منهجا ومبحثا ونظريات ومن ثم لن تهدينا بل تزيدنا ضلالا . وإذا ضللنا الطريق لن نعرف إلى أين نسير بل سنقنع بتهويمات تقتلع جذورنا من الواقع .

وكتابنا هذا يطيح بإحدى البديهيات التي ترسخت في الأذهان وأضحت شأن البديهيات الأخرى لبنة أساسية بل محورا لإطار فكري حاكم ننطلق منه وننظر إلى الأحداث على هديه وفي ضوئه ، وإن خالفته الوقائع كذبنا الواقع وعدنا إلى بديهيتنا إماما مطلقا له الحاكمية ...

ولهذا أقول أن هذا الكتاب صدمة لنا ، إذ تتكشف لنا أسطورة كبرى ومؤامرة حكمت التاريخ واستبدت بفكر الإنسانية ، وهي جزء من سياسة عالمية امتدت قرونا.... وإذا كانت الحقيقة هي الطريق والمنطلق إلى الحرية فإن التزييف هو الطريق إلى العبودية أو الاستعباد والضلال .... وإذا كانت الإنسانية عاشت قرونا أسيرة أوهام ، إلا أن المعاناة الحقة ، والآثار الجنائية ، إنما وقعت على كاهل من سلبناهم الحقيقة وزيفنا تاريخهم ...فهؤلاء هم الضحية .

والتزييف لا يبدأ دائما من تأويل النص على نحو يخلق أفقا زائفا لنشاط الإنسان ؛ بل إنه قد يبدأ بابتداع النص فيكون كذبة في مبدئه ، وضلالا في مسيرته ، وسلبا لأفق الفعالية الصحيحة ، ويضيع الطريق من صاحبه وقد تلقن أسطورة تضخمت وترسخت مع التاريخ .

وإذا كانت الحضارة الخصبة الولودة المتجددة هي ثمرة حوار بين الإنسان / المجتمع وبين الواقع / البيئة حاضرا وتاريخا فإن مثل هذا الحوار لا يقوم على كذبة وإلا فإنه لن يكون منتجا أبدا ، ومن ثم يظل المجتمع عقيما . وإنما شرط خصوبة الحوار هو الصدق ...صدق الرؤية؛ أعني التزام الحقيقة على هدى عقلاني نقدي مع الإنسان في تاريخه وحاضره وعلاقاته ومنظوره المستقبلي . ولعل في هذا مؤشرا لجوهر أزمة وعينا بالتاريخ ومن ثم أزمة الانتماء .

تزييف الوعى

إن مصر / إفريقيا ومصر / العرب ومصر /المتوسط فى غيبة أو مغيبة عن حقيقة تاريخها بعد أن حجبته أقنعة مصطنعة وأساطير لبست ثوب الحقائق وباتت مرجعا يستشهد به .... روايات غير محققه أحاطت بها هالة ذات قدسية حينا ، أو أكاديمية حينا آخر ، وظلت محور صراع بين شعوب المنطقة ؛ ولم نسأل أنفسنا عن جوهر هذا الصراع وحقيقته وميتداه وفعاليته فى التاريخ ، وطبيعة القوى المادية والروحية أو الثقافية المحركة للبشر أو مانسميه دينامية أحداث التاريخ ....

اصطلحت قوى عديدة على مناهضة تاريخ مصر / إفريقيا وإدانته وإن لم تتوافق زمانا فقد اتفقت رأيا ورؤية منذ سقوط الحضارة المصرية على أيدى الفرس إلى الغزو الأوربى.... فهى حينا حضارة وثنية ملعونة ، وحينا آخر حضارة مجهولة المنشأ والفاعل .... أو أقامها أناس بيض أسطوريون اختفوا من الوجود .... من أين جاءوا ؟ وإلى أين رحلوا؟ لا أحد يعلم . وتشكل هذه الرؤية فى جميع الأحوال ، وعلى تباينها ، أسطورة فاعلة ، أو " حقيقة " اجتماعية شغالة ، بل ومقدمة أكاديمية ومنطلقا للفكر والسلوك .

نحكى عن غزوات القوى الخارجية لمصر مع تعاقب الزمن والعهود ، ونصوغ الرؤية صياغة محايدة تخفى كل نوازع ودوافع ومظاهر الحركة والتناقض أو الصراع بين صفوف قوى المجتمع سواء داخل مصر او الزاحفة اليها. لماذا سقطت الحضارة المصرية ؟ لا نجد اجابة تكشف لنا الاسباب و تاريخيتها و عوامل تحللها. ما هو دور القوى الغازية على تعددها وتعاقبها و تعارضها و حقيقة الصراعات بينها و بين مصر الحضارة ، مصر القوة التاريخية الجغرافية العسكرية الاقتصادية اى الحاكمة للمنطقة؟ نتحدث عن هذه القوى وكانها وافدة زائرة وفدوا ضيوفا على ارض مباحة او مستباحة لهم ان يدخلوها امنين ... و نقول على سبيل المثال دخول او فتح الفرس او الرومان او غيرهم مصر ... و لكن لماذا ؟ وماذا حدث ؟ ما هى الاطماع و الصراعات و التناقضات ؟ ما هى الاثار السلبية على مصر والى امتد تاثيرها و تفاقمت ؟ وهل حقا شعب مصر سمته و خصوصيته الترحيب بالوافدين الغزاة .... اعنى الاستكانة والاستسلام كما يشاع ؟ ام كيف صاغت احداث التاريخ و اقنعة الايديولوجيا و الظروف الاجتماعية .... اعنى كيف صاغت عمليات التزييف الروحى ، والنهب المادى، و الواقع المأساوى استجابات الانسان المصرى ؟ و ماهو مدلول الحشود الوافدة الغازية؟ مدلولها الثقافى والجنسى . اعنى الى اى مدى اثرت جحافل

الغزاة الذين استوطنوا فى الثقافة السائدة التى اغتذى عليها الانسان المصرى ؟ وكيف اثرت فى التركيب الجنسى للانسان المصرى ؟ وكيف انعكس هذا التزييف فى حقيقة الإنتماء للتاريخ و الوعى بالتاريخ و وحدة التاريخ والمواطنة بحيث كان حصاد السنين ما نراه اليوم ؟

السقوط والعزل العنصرى

إننى أزعم أن مصر واجهت محاولات خصاء ثقافى على أيدى الغزاة جميعا فى تعاقبهم وصراعاتهم للإستئثار بالفريسة . وأزعم أن مصر عاشت فى معزل عنصرى " أبارتهيد " منذ تاريخ سقوط الحضارة المصرية إلى تاريخ انبعاث حركة النهضة الحديثة ، أو عودة الروح المصرية على أيدى رفاعة الطهطاوى أول من تحدث عن مصر الحضارة وطالب بوحدة تاريخها ، وأحمد عرابى أول من أطلق صيحة الفلاح المصرى مطالبا بحق المشاركة فى صنع القرار و ليس محمد على كما هو شائع رسميا والذى كان مناسبة لا سببا . وحين أقول مصر فأنا أعنى مصر الزراعة اقتصادا وجغرافية وثقافة .... مصرالفلاح والأرض السوداء ...التى عانت من سيطرة وسطوة الأجنبى الغازى وعدائه لثقافتها إلى حد القتل وفرض عليها العزلة.

جميع الغزاة فى تعاقبهم ناصبوا الثقافة المصرية العداء القاتل. وجميع الغزاة إبتداء من الفرس عمدوا إلى تدمير ونهب ثروات مصر المادية والروحية ...انهم لم يستنزفوا خيراتها الاقتصادية فحسب بل عاثوا فى أرضها فسادا ، ودمروا بيوت ومؤسسات الثقافة فيها . نهبوا الكتب ودمروا المعابد ، وأخرسوا الكهنة ...لم تكن معابد مصر المنتشرة فى ربوعها مجرد أماكن عبادة ، يؤمها المصلون لأداء طقوس ثم ينفضوا ؛ بل كانت فى المحل الأول المطبخ الثقافى ....أو ترسانة الثقافة ...للتثقيف ، وصناعة الثقافة ، وهى خزانة الوعى الثقافى الاجتماعى تصوغ رؤية المجتمع وإطاره الفكرى . ولهذا كانت مستهدفة دائما من الغزاة لتدميرها رغبة منهم فى تدمير منابع الثقافة المصرية واحكام السيطرة . ولم يكن الكهنة فى مجموعهم مجرد رجال دين يلقون مواعظ للتخويف والترويع بل كانوا بدرجاتهم وفئاتهم المختلفة رجال علم : علم دنيا وعلم دين وصناع معرفة . وقد كانت المعرفة بجميع أشكالها قدسية الطابع الهية الطبيعة حسب عقيدتهم .... والعارف العالم رجل قدسى لما حظى به من علم ومعرفة ... ولهذا كتبوا علومهم الخاصة بلغة مقدسة هى الهيروغليفية . وحرى أن نأتى هنا بشهادة مؤرخ قديم غير مصرى هو ديودور الصقلى وقد عاش فى الإسكندرية فى القرن الأول قبل الميلاد ويدلى بشهادته فيقول " إن الفرس بقيادة قمبيز أشعلوا النيران